

الفصل الأول

عصر البارودي

١ - الحياة السياسية

سخر محمد علي كل شيء في مصر لخدمة مطامعه ، وحروبه الكثيرة التي شنها على تركيا محاولاً أن يؤسس ملكاً عريضاً . وكان محمد علي هو كل شيء في مصر ، فالأرض ملك للدولة والفلاحون يكدهون والدولة هي التي تجني الثمرة وترك لهم ما يقوم بأودهم .

وقد استعان محمد علي بكثير من الأجانب ، وقد جاءوا أول الأمر علماء وباحثين وكان أكثرهم من فرنسا التي كان بنها وبين محمد علي صداقة متينة بيد أن هذا التيار الأجنبي توقف في عهد عباس الأول الذي كان ينفر كل النفور من الثقافة الأجنبية ولا سيما الفرنسية فنحى عن مناصب الحكم في مصر أكثر الأجانب وبخاصة الفرنسيون ، فجاء ذكره على السنة مؤرخها مشوباً بالقدح خالياً من المدح^(١) .

ولكن فرنسا المستعمرة لم تكن ترضى بهذا ، فإن فاتها الغزو الحربي فعزیز عليها أن يفوتها الغزو الأدبي ، والتمكين للغتها وثقافتها بأرض مصر ، فتفيد نفوذاً وتجارة ، ولعلها تجد فرصة مواتية فتتدخل في شؤون مصر ، ولذلك حثت علماءها على تأدية الرسالة التي اضطلع بها المجمع العلمي المصري ، وشجعت الفرنسيين على الإقامة بمصر ، وحثت الأثرياء على دفع الأموال الطائلة في القروض التي أصدرتها الحكومة المصرية ، وفي إنشاء قناة السويس ، وتأسيس

(١) البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهد عباس الأول وسعيد للأمير عمر طوسون

المصارف العقارية إلى غير ذلك ، وبهذا خضعت مصر اقتصادياً لفرنسا ، كما عملت هذه الدولة على بسط نفوذها الثقافي بإرسال عشرات الإرساليات التبشيرية والتعليمية وفتح المدارس المختلفة^(١) .

أما إنجلترا فقد أدركت أهمية مصر منذ أن غزاها نابليون ، ووثقت أن دولة قوية مثل فرنسا تستطيع أن تحول بينها وبين مستعمراتها في الشرق الأقصى إذا استقرت بوادي النيل ، ولذلك عملت جاهدة على إخراج نابليون وجنده من مصر ، وكانت موقعة أبي قير المشهورة ، ثم حاولت غزو مصر سنة ١٨٠٧ بقيادة الجنرال « فيرزر » ، ولكن مصر تصدت لهذا الغزو الذي لا مسوغ له إلا الجشع الاستعماري ، وهزم الإنجليز هزيمة منكرة في رشيد في تلك السنة . بيد أن إنجلترا لم تستم للهزيمة . فأخذت كذلك ترسل البعثات التبشيرية الواحدة تلو الأخرى ، وعملت على تأسيس عدد من المدارس الإنجليزية بمصر ، وظلت تنهز الفرصة للتدخل المباشر في شئون البلاد حتى تم لها ذلك عقب الثورة العربية . ولقد بدت مطامع إنجلترا وفرنسا واضحة جلية ، فأنتقلت على مصر الديون فأنشئ فيها صندوق الدين ، وفرضت الرقابة الثنائية ، واستحالت هذه الرقابة إلى مشاركة في الحكم ، إذ دخل وزارة « نوبار » وزيران أوروبيان أحدهما فرنسي والآخر إنجليزي ، يشرف الفرنسي على وزارة الأشغال ويشرف الإنجليزي على وزارة المال^(٢) ، وأى احتلال أوسع من هذا ؟ إن الذي يصرف المال قوام على شئون الدولة ، ومن يتولى وزارة الأشغال مهيمن على تقدم الأمانة . ولذلك ثارت ثورة الوطنيين وقادة الفكر وعلى رأسهم السيد جمال الدين الأفغاني ، فأخذ يندد بحكم إسماعيل ، وسيطرة الأجانب ، وازدياد نفوذهم ، يؤازره في ذلك صفوة من حواريه وتلاميذه ، وظهرت المقالات القوية ضد تبذير إسماعيل وضد الاستعمار في جريدتي أديب إسحق « مصر والتجارة » . بل إن الوقائع المصرية وهي الجريدة الحكومية لم تسلم من الثورة ، فأخذ الشيخ محمد عبده تلميذ جمال الدين بنقد الحاكم المستبد في الوقائع ويقول : « إن الحاكم وإن وجبت طاعته هو من البشر

(١) « تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل » لإلياس الأيوبي ج ١ ص ٢١٨

(٢) « عصر إسماعيل » لعبد الرحمن الرافعي ج ٢ ص ٩٠

الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، ولا يرده عن خطئه ، ولا يقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل » .

أخذ هؤلاء المفكرون ينادون بالدستور ، وبمشاركة الأمة في الحكم حتى لا يقع الحاكم في مثل ما وقع فيه إسماعيل من أخطاء ، وكان إسماعيل متبرماً بهذا التقدر . بيد أن الأزمة المالية التي أوقع فيها مصر انتهت بتزوله عن العرش لابنه الخديو توفيق . وكان الناس يؤملون خيراً في توفيق هذا ، إذ كان يجتمع بالسيد جمال الدين وهو ولي للعهد ، ويرى منه ميلاً للأخذ بنظام الشورى ، ويسمع منه نقده لسياسة أبيه وإسرافه ، غير أن توفيقاً لم يف بعهده بعد أن تولى الحكم ، وسرعان ما تنكر لمبادئه ولأصدقائه ، فلم يدخل نظام الشورى ، ولم يحسن معاملة السيد جمال الدين ، بل استمع لأقوال الوشاة من الإنجليز وسواهم ؛ إذ حرصوه على إخراجه من مصر^(١) ، فاستجاب لهم ، ولم يكن كريماً في معاملته له ، بل استعمل معه غاية الغلظة والجفاف ، كما أرجع المراقبة الثنائية ، وخاصم الحكم النيابي ، وحكم البلاد حكماً مطلقاً استجابة لرغبة الأجانب وتدخلهم في شئون البلاد ، ففز ذلك على كثير من رجال مصر ، ورأوا لزاماً عليهم أن يضعوا حداً لهذا التيار الفاسد ، والاستبداد ، والرشوة ، والسخره ، والعبودية .

ثم كانت حركة الجيش ، والمطالبة بتولية المصريين المناصب العليا فيه ، وقد كانت قبل وقتاً على الجراكسة والأتراك ، وكانوا في منتهى الغلظة والقسوة فنار الجيش ثورته العتيدة بقيادة عرابي في أول سنة ١٨٨١ ، وأحرز أول انتصاراته في فبراير من تلك السنة بعزل وزير الحربية الجركسي المتعجرف المستبد « عثمان رفقي » وأسندها إلى أكبر نصرائه « محمود سامي البارودي » ، وبلغت الثورة أوجها في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ حين احتشد الجيش في ميدان عابدين ، وتظاهر أمام الخديو توفيق وأرغمه على إسقاط وزارة رياض ، وتأليف وزارة محمد شريف ، غير أن وزارة شريف باشا لم تمكث إلا أمداً يسيراً ، وهنا تولى البارودي رئاسة الوزارة ، وحاول أن يصلح الأمور في الجيش بالرفق والحوادة ،

(١) « مجلة المنار » ج ٨ ص ٤٠٤ ، وانظر كذلك The Persian Revolution Browne, p.8

ولكن الأمور سارت على غير ما قدر ، وطالب الجيش بعزل توفيق ؛ وخاض البارودى الثورة مع الخائضين . ولكن دول الاستعمار كانت ترصد بمصر الدوائر فتدخلت فى شئونها ، ونهضت لحماية توفيق كما زعمت ، فضربت ضربتها فى يولية سنة ١٨٨٢ ، واحتلت إنجلترا مدينة الإسكندرية ، وكانت مواقع بين الإنجليز ، وجيش عرابى الذى لم يكن على استعداد لخوض غمار حرب مع دولة قوية كإنجلترا ، ثم كانت معركة « التل الكبير » وهزيمة عرابى ، وإخفاق الثورة واحتلال الإنجليز لمصر .

لقد تطورت حركة الجيش من المطالبة بإنصاف المصريين إلى حركة عامة تطالب بالدستور ، وبتحرير البلاد من النفوذ الأجنبي ، وأخذ كتاب الثورة وخطباؤها أمثال عبد الله نديم ، ومحمد عبده ، يصورون ما لاقته مصر على يد الحاكم المستبد فى عهد إسماعيل ، ويصورون بؤس الفلاحين فى السخرة^(١) ، والعذاب المهين الذى يصبه الرؤساء على الناس وكيف يلهون ظهورهم بالسياط فى سبيل الجباية ، ودفع الضرائب ، حتى نفر الناس من الأرض وكرهوا زراعتها ، لكثرة ما أرهقوا به على يد الجباة والمرابين ، ولهذا كانت ثورة على الفساد والاستبداد والظلم .

لقد تطورت الثورة العرابية إلى ثورة عامة حمل لواءها الجيش ، ونهضت مصر على أثره تؤيده وتشجعه ، لولا أن مصر فى ذلك الوقت كانت ضعيفة ، وكانت مواردها قد استنزفتها إسراف إسماعيل ، ولم تكن الأمة قد اكتملت يقظتها ، وكانت إنجلترا فى أوج عصرها الاستعماري ، ولها نفوذ قوى بين الدول ؛ ولهذا كله أخفقت الثورة ، ونفى زعمائها إلى « سرنديب » لإحدى جزر الهند ، وهى من مستعمرات إنجلترا ، ومن هؤلاء الزعماء البارودى .

(١) كان الأهالى يسخرون فى إقامة الجسور على النيل أيام الفيضان وحفر الترغ من غير أجر وكان كثير من الملاك يسخرون الفلاحين فى أرضهم بدون أجر .

٢ - الحياة العقلية

ظلت مصر وبلاد العروبة زهاء ثلاثة قرون تحت حكم الأتراك والمماليك ، وهى فى ظلام دامس ، وجهل فاضح ، تعاني مرارة الظلم ، وقسوة الحرمان ؛ فقد حرّمها الأتراك أعلى كنوزها ، فنقلوا كثيراً من العلماء والأدباء والأمراء ، والمهندسين ، والورّاقين ، وأرباب الحرف إلى بلادهم ، كما نقلوا أكثر الكتب التى كانت بجزائن المدارس ^(١) . ونهبوا أموال الأوقاف التى كانت محبوسة على العلماء ، وطلبة العلم ، فتفرق الطلاب ، وانفضت سوق العلم ، ولم يبق منه إلا ذمء ^(٢) يسير بالأزهر .

ومن البديهي أن اللغة العربية لم تجد فى هذا العصر المظلم من يشد أزرها ، ويشيب الشعراء والكتاب المحققين بها ؛ لأن اللغة التركية طغت وصارت اللغة الرسمية فى الدواوين ، وفشت على ألسنة الناس ، ولأن الحكام لا يفقهون العربية ، ولا يقدرونها قدرها ، ولا يميزون بين الجيد والغلث من الكلام حتى يلجأ إليهم الشعراء مادحين ، ولم يعد فى استطاعة كثير من الكتاب أن يسلموا من اللحن الفاحش ، أو يأتوا بالمفهوم المقبول ، بل عزّ عليهم اللفظ الجزل ، والأسلوب القوى ، فليجئوا للزخرف والمحسنات يخفون بها عوار ^(٣) كلامهم ، وقد أكثروا من هذه الخلى اللفظية حتى استغلق الكلام ، وأتوا بالغلث السمج الذى إن حسن فيه شيء كان سرقة واغتصاباً من آثار من سبقوهم من الكتاب .

ظلت مصر على هذه الحال حتى دوت فى آفاقها مدافع نابليون ، فهبت من سباتها العميق فزعة مذعورة ، وأخذت تقلب الطرف دهشة فى هذه الجيوش العجيبة ، والوجوه الغريبة ، وعرفت أن ثمة دنيا أخرى حافلة بالعلم والحضارة والمال والقوة غير دنيا الأتراك والمماليك وما فيها من جهل وضعف وذلة وانحلال .

(١) راجع ابن إياس الجركسى فى كتابه « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » وقد أرخ لمصر حتى أوائل الاحتلال العثمانى .

(٢) العوار : العيب .

(٣) النماء : بقية النفس .

واصطحب نابليون معه كل عدد الاستعمار والاستقلال والإيقاظ ،
فأنشأ مسرحاً للتمثيل ، ومدارس لأولاد الفرنسيين ، وجريدتين ، ومصانع ،
ومعملاً للورق ، ومطبعة ، ومراصد فلكية ، وأماكن للأبحاث الرياضية ، ومكتبة
عامة وقد جمعت بعض كتبها من المساجد والأضرحة ، وأنشأ المجمع العلمي
المصرى على نظام المجمع العلمي الفرنسي ، وقد أفاد هذا المجمع مصر والتاريخ
بآثاره وأعمال رجاله ، وصارت أبحاثهم هي النواة الأولى لكل بحث خاص بمصر ،
ولا بدع إذا ظل المجمع العلمي هو الأثر الباقي حتى اليوم من آثار حملة
نابليون ، وذلك بلليل فائدته وهذا ما دعا بعض المؤرخين إلى القول بأن حملة
نابليون على مصر كانت علمية أكثر منها حربية^(١) .

وعلى الرغم من قصر المدة التي قضتها الحملة الفرنسية بمصر ، فقد تركت بها
أثراً لا يمحي ، وظل المصريون ردحاً طويلاً من الزمن يعجبون بنابليون بعد
خروجه من ديارهم ، « وظلت طرق الإدارة الفرنسية مهيمنة على حكومة مصر ،
وظلت عادات التفكير الفرنسية تسيطر على الطبقة المستنيرة بمصر ، وإن
ما خلفته الحملة الفرنسية في مصر خلال ثلاثة أعوام لا غير لمن أضخم
ما يتسنى إنجازاه في هذا الأمد الوجيز^(٢) » .

ثم أتاحت لمصر الفرصة في أن تواصل أمد اليقظة التي ابتدأت على يد
نابليون ورأت أنه لا يستقيم لها الأمر إلا إذا كان تحت إمرتها جيش قوى ،
وكان وراءه شعب ناهض ؛ فوضعت أسساً متينة لهضة شاملة في الجيش
والصناعة والزراعة والتعليم والإدارة حتى يكون البعث عاماً يدفع بعضه بعضاً .
وقد وجدت مصر أن خير وسيلة تنهض بالشعب وترفعه إلى مستوى الأمم
الناهضة هي الاهتمام بالتعليم ؛ فسلكت في تعليم الشعب كل الطرق الناجحة :
فن معثات ، وطباعة ، وفتح مدارس ، ونقل آثار الأمم الغربية في العلوم
والآداب ، وتأسيس الصحافة لتثير الحياة أمام الأمة .

توالت البعثات إلى أوروبا وكانت إحدى عشرة بعثة آخرها سنة ١٨٤٧

(١) « تاريخ مصر السياسي » لمحمد رفعت ج ١ ص ٣٩

(٢) The Transit of Egypt, by P. G. Elgood, p. 45. (٢)

للتخصص في شتى العلوم والفنون : من حقوق ، وعلوم سياسية ، وهندسة
حربية ، وطب ، وزراعة ، وكيمياء ، وطباعة ، وحفر وغير ذلك مما استلزمته
النهضة الحديثة^(١) . ولقد كان لهذه البعثات أثر بالغ في تقدم مصر ، ونهضتها
وإرسال نور العلم دافقاً قوياً في ربوعها ، كما كان لها أعظم الفضل في إحياء
اللغة ، وجعلها مسايرة بعض الشيء للعلم الحديث ، بما ترجمه أعضاؤها من
كتب ، وما أدخلوه من مصطلحات ، وما ألفوه في شتى نواحي العلم ؛ ومن
أشهر هؤلاء الشيخ رفاة الطهطاوى ، الذى ذهب إلى فرنسا إماماً للبعثة ،
ولكن نفسه الطموح دفعته لدراسة الفرنسية وإتقانها ، وعنى بكتب الفلسفة
والأدب والتاريخ والجغرافيا ، وترجم وهو في باريس كتابه « قلائد المفاتيح في
غريب عوائد الأوائل والأواخر » . وهو أول من كتب من المصريين في المباحث
الدستورية ، مع أن هذه المباحثات كانت مجهولة في تاريخ مصر القومى ،
وعرّب في كتابه « تخليص الإبريز » دستور فرنسا في ذلك الحين ، وما تضمنه
من نظام المجلسين ، وحقوق الأمة أفراداً وجماعات ، وهو الذى أشار بإنشاء
مدرسة الألسن ، وفيها تخرج على يديه صفوة من العلماء والمترجمين الذين ملأوا
مصر علماء هم وتلاميذهم حتى بلغ ما ترجموه زهاء ألفى كتاب . وهو أول من
كتب في المسائل الوطنية والقومية ، وواجب المواطن الصالح^(٢) ، وترجم رواية
« تليماك »^(٣) وهى أول رواية تنقل إلى الأدب العربى الحديث .

وعنيت النهضة بالطباعة فأُسست مطبعة بولاق سنة ١٨٢٢ وهى إلى اليوم
تعد أكبر مطبعة عربية في العالم ؛ ولما كان اتجاه مصر في ذلك الوقت حريصاً

(١) راجع في بعثات محمد على Journal Asiatique عدد أغسطس ١٨٢٨ ص ١٠٩ ،
و « المخطط التوفيقية » لعلى مبارك ج ١٢ ص ١٠

(٢) راجع « المرشد الأمين للبنات والبنين » للشيخ رفاة الطهطاوى ص ٩٠ - ٩٣

(٣) مؤلف « تليماك » هو الأسقف والكاتب الفرنسى الشهير فنلون (١٦٥١ - ١٧١٥)
كان مؤدب الدوق دى بورجونيا وكتب له عدة كتب منها هذا الكتاب ونشره سنة ١٦٩٩ وأودعه
نقداً خفياً لحكومة لوس الرابع عشر فأثار القصر عليه . ولقد استوحى فنلون موضوعه من قصة
تليماك المشهورة في الآداب الإغريقية القديمة وملخصها أن تليماك هذا هو ابن عولس تركه أبوه
صغيراً لما ذهب إلى حرب طروادة فلما اشتد ساعده جد يبحث عن أبيه تقود خطواته منيرفا إلى
المحكمة والفنون بعد إذ تزيت في زى منتور. صديق عولس الحميم .

علمياً فإن مطبعة بولاق لم تكن في أول الأمر إلا بالكتب العلمية ، والكتب المترجمة التي يقدمها أعضاء البعثات العائدون إلى مصر ، ولم تهتم بالكتب الأدبية إلا في عصر إسماعيل .

أما الصحافة فقد وضعت النواة الأولى لها بإنشاء الوقائع المصرية ، واختيار أفاضل العلماء والكتاب لها .

ثم أنشئت عدة مدارس عليا كالطب والصيدلة والهندسة ، وجلب لها كبار الأساتذة من فرنسا ، ولكن العناية الكبرى كانت موجهة للجيش وتقويته ، وإنشاء المدارس التي تعنى به وتقوم على خدمته ، ولم تلتفت مصر للأدب أدنى التفاتة ، وذلك لأن مصر لم تكن بحاجة للأدب حاجتها إلى جيش قوى تدعم به عرشها ، وتؤسس دولتها ، فكان كل شيء في مصر ، وكل البعثات من طبية وهندسية وصناعية وغيرها تهدف إلى خدمة الجيش ورجاله .

ومع ذلك فقد كانت هذه النهضة الحربية أساساً للنهضة العلمية الأدبية التي ظهرت فيما بعد ، فالمدارس التي فتحت في مستهل النهضة ، والكتب التي ترجمت ، والبعثات التي تزودت من علوم أوروبا واطلعت على حضارتها ، أسهمت كلها في الوثبة التالية ، وساعدت على نجاحها .

على أن ركب النهضة لم يواصل سيره ، بل أصيبت مصر بنكسة سنة ١٨٤٩ على يدى عباس الأول وسعيد كادت ترجع بمصر القهقري إلى عصور الظلمات ، إذ كانا من دعاة الرجعية ، فألقى عباس حين توليته كل المدارس العالية إلا المدرسة الحربية ، وعطل الوقائع المصرية ، وأغلق المصانع ووقف البعثات ، وظلت مصر تعاني من هذه النكسة ما تعانى حتى سنة ١٨٦٣ حينما جاء إسماعيل ، وليس بمصر إلا مدرسة ابتدائية واحدة ، ومدرسة حربية ، وأخرى طبية ، وثالثة للصيدلة ، فاستأنفت مصر نهضتها وأعادت للبعثات سيرتها الأولى وأخذت الحياة تدب إلى كل نواحي التعليم ، فأعيدت المدارس العالية التي كانت في عهد محمد على كالهندسة والطب ، وزيد عليها مدرسة الحقوق ، وكانت تسمى مدرسة « الإدارة والألسن » ، وفي ذلك العهد أنشئت دار العلوم ينشأ فيها الطلبة تنشئة لغوية وأدبية وشرعية مع قسط وافر من العلوم الحديثة وطرق التربية ، وقد كان

لها أثر بالغ في إحياء اللغة وتجديد أساليبها ، فنفضت عن تراثها المجيد غبار القرون ، وقدمته للناس رائعاً جذاباً ، وعكف أبناؤها على تعلم النشء ، وتقويم ألسنتهم ، وتدريب أقدامهم ، وتقديم الكتب التي تنهج نهجاً علمياً نفسياً ، ولا تزال حتى اليوم تقوم بنصبيها الوافي في نهضة التعليم واللغة .

وفي هذا العهد أنشئت أول مدرسة للبنات سنة ١٨٧٣ وهي مدرسة السيوفية ، وأنشئت عدة مدارس ثانوية وابتدائية للبنين ، وأعيد ديوان المدارس - وهو نواة وزارة المعارف - بعد أن ألغاه سعيد . ومن الوسائل التي ساعدت على النهضة الأدبية والعلمية في ذلك العصر « دار الكتب » ، فقد يسرت العلم للراغبين فيه ، وحببت للناس الاطلاع على الكنوز المدفونة ، وعاونت المؤلفين والباحثين ، وساعدت الناشرين والطابعين على استنساخ نفائس الكتب وإشاعتها بين الناس .

وكثرت الجمعيات العلمية في ذلك العصر ، وكثرتها دليل على حيوية الأمة ويقظتها ورغبتها في السير نحو الكمال ، غير معتمدة على الحكومة في غذائها العقلي ، فإذا اضطرب أمر الحكومات ، أو وليها من لا يحسن القيام بشؤون الحكم لا يصاب الشعب بالشلل العقلي ، ولكن يمضي في طريقه قدماً ، يتتقف ويستعد للنضال في سبيل الحياة السعيدة بهمهم أفراده اليقظين ، والجمعيات القوية المنظمة . فمن ذلك جمعية المعارف التي أسست سنة ١٨٦٨ ، وهي أول جمعية علمية مصرية ظهرت لنشر الثقافة عن طريق التأليف والترجمة والنشر ، وقد قامت بطبع طائفة من أمهات الكتب في التاريخ والفقه والأدب ، ولقيت تشجيعاً عظيماً حتى بلغ عدد أعضائها ستين وسبائة عضو من الطبقة الممتازة في الأمة^(١) .

ومن الذين عنوا بنشر الكتب القديمة وإخراجها الشيخ رفاعة الطهطاوى ، فنشر « معاهد التنصيص » ، و « خزانة الأدب » ، و « مقامات الحريري »^(٢) وغيرها . ومن الجمعيات التي ظهرت في ذلك العصر الجمعية الخيرية الإسلامية أنشئت أول الأمر بالإسكندرية سنة ١٨٧٨ حين دفعت الحماسة جماعة من

(١) راجع « عصر إسماعيل » لعبد الرحمن الرافعي ج ١ ص ٢٥٦

(٢) « الخلط التوفيقية » لعل مبارك ج ١٣ (ص ٥٥ - ٥٦)

المعلمين بالثغر - رأوا طغيان الأجانب ، واشتداد نفوذهم ، واستئثارهم بمراقب البلاد - إلى تأسيسها ، وانضم إليها السيد عبد الله نديم وأسس أول مدرسة حرة يتعلم فيها المصريون وينشئون نشئة وطنية صالحة ، وظلت الجمعية قائمة حتى شبث الثورة العربية ، فتفرق القائمون بأمرها . وعلى غرارها أنشئت جمعية بالقاهرة تحمل اسمها سنة ١٨٩٢ أسسها الشيخ محمد عبده .

هذا وقد تقدمت الصحافة في ذلك العهد تقدماً عظيماً ، وساعدت على تحرر اللغة من آفاتنا القديمة التي ورثتها من عصور الانحطاط . ومن الصحف التي كان لها أكبر الأثر في تذليل اللغة العربية للأسلوب الصحفي صحيفة « الجوائب » لأحمد فارس الشدياق ، وكان أول ظهورها بالآستانة سنة ١٨٦٠ وقد افتتن صاحبها في تحريرها وتخير موضوعاتها ، وجمع فيها بين السياسة والأدب بشتى ضروبه وأبوابه بما في ذلك القصائد البليغة لكل شعراء العربية ، فذاعت وأقبل الناس على قراءتها بشغف بالغ ، ولم تدع بلداً عربياً أو إسلامياً إلا دخلته واقتبس الناس منها ، وحكوا عنها ، وظلت تعمل حتى سنة ١٨٨٤ ، وقد اشتركت فيها الحكومة المصرية بألني نسخة .

ومن الصحف التي عملت على نشر الأدب وتشجيع الأدباء « مجلة روضة المدارس » التي أنشأها العلامة على مبارك سنة ١٨٧٠ ، وأشرف على تحريرها الشيخ رفاعة الطهطاوي ، وأسهم في إخراجها نخبة من جلة العلماء والأدباء فهدت السبيل للصحافة الحديثة ، وكانت توزع بالمجان على جميع التلاميذ ، وقد أسفحت في أعمدها للطلبة ينشرون فيها أبحاثهم الجديدة وقصائدهم .

وقد صدرت عدة صحف إخبارية في مصر كجريدة « وادي النيل » التي أنشأها الكاتب الأديب الشاعر عبد الله أبو السعود ، و « نزهة الأفكار » للأديبين الكبيرين إبراهيم المويلحي ومحمد عثمان جلال . وقد ساعد على تقدم الصحافة بمصر هجرة جماعة من الأدباء السوريين إليها عقب حوادث ١٨٦٠ حين فروا بجريرتهم من الاضطهاد ، فجاءوا مصر ، وقلوبهم تغص بالإحن والحنق على تركيا ، وفي نفوسهم ميل إلى الحرية ، والتنقيص عن الآراء المكبوتة ، وقد شجعهم مصر على الإقامة بها والإسهام في نهضتها ، فأسدوا للصحافة ونشر

الثقافة خدمات جليلة . ومن هؤلاء أديب إسحق صاحب جريدتي « مصر والتجارة » ، وكان أديب فلتة من فلتات الزمن ، استطاع — على حداثة سنه — أن يتوهج في سماء الأدب والسياسة والخطابة نجماً ساطعاً ، وأن يكون مدرسة إنشائية يمتدحها الأدباء والخطباء ؛ وكان من الذين امتلأت قلوبهم بحب مصر والشرق ، ورأى الأجانب الطامعين ، والمرتزة ، والأفاقيين ، فأضرمها عليهم ناراً مشبوبة ، لا تخمد لها جذوة في كل مكان حل به ، وما أكثر ما ارتحل وشرد في سبيل مبدئه وفيض وطنيته وحرارة أسلوبه حتى احترق صغيراً ، ومات ولما بينته العقد الثالث من عمره .

ومنهم سليم وبشارة تقلا صاحبها « الأهرام » التي صدرت في سنة ١٨٧٥ ، ولا تزال تصدر حتى اليوم . وغير هؤلاء من الصحفيين السوريين والمصريين عدد كبير ، عملوا على ترويح الثقافة ، وتنبيه الأفكار ، ونقد الحكام ، وبحث المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . كما خلصت هذه النهضة الصحفية اللغة من أسرها القديم ، وأوضارها التي ورثها من عصور الضعف ، وخاضت في موضوعات شتى ، وسلّس الأسلوب ، واحتذى الصحفيون أسلوب ابن خلدون في مقدمته وهو ذلك الأسلوب السهل المرسل ، مبتعدين عن السجع ، وتكلف المحسنات .

ومن العوامل التي ساعدت على نمو الحياة العقلية وتقدمها انتشار المطابع ، فلم تعد مطبعة بولاق وحدها بل أسست عدة مطابع أهلية أخذت تحيي تراث السلف من أدباء العرب ، وتنشره للناس ، ومن أشهر الكتب القديمة التي طبعت في تلك الحقبة : « المثل السائر » ، و « الأغاني » ، و « مقدمة ابن خلدون » ، و « العقد الفريد » ، و « وفيات الأعيان » ، و « الإحياء » للغزالي ، و « تفسير الرازي » وغيرها من أمهات الكتب ، بجانب عشرات الدواوين لمشاهير الشعراء . مما سهل على الشادين في الأدب ، والمغرمين به الاطلاع ، والحفظ ، والبحث ، ومن هؤلاء البارودي .

ولكن هذا التيار العربي القديم لم يكن المنبع الوحيد الذي يروى ظمأ الصادين المتعطشين للآداب ، بل كان ثمة تيار آخر أجنبي ابتداءً منذ عصر النهضة ،

وإن لم يشتد إلا في هذا العصر بعض الشيء ؛ وقد عنى الأمر بالكتب العلمية إلا أنه ما لبث أن اهتم بالكتب الأدبية فأخذ المتخرجون في مدرسة الألسن ينقلون ما لذ لهم من عيون الكتب الفرنسية في القانون والأدب ، وعلى رأسهم محمد عثمان جلال الذي ترجم عدداً من المسرحيات والقصص المشهورة في الأدب الفرنسي ، وترجم أمثال « لافونتين »^(١) في كتاب سماه « العيون اليواظظ » ، كما ترجم يعقوب بن صنوع الصحنى اليهودى صاحب « أبى نضارة » الجريدة الهزلية عدداً من المسرحيات مثلت مراراً ، وكذلك ترجم أديب إسحق ، وسليم نقاش مسرحهما عدداً من المسرحيات الفرنسية^(٢) وقام نجيب الحداد بعبء ضخم في هذا السبيل .

ولا نستطيع ونحن نتكلم عن الحياة العقلية في عصر البارودى أن نغفل شخصية علمية كان لها أكبر الأثر في حياة شاعرنا ، ألا وهى شخصية السيد جمال الدين الأفغانى ، فعلى الرغم من أن شخصيته السياسية طغت على شخصيته العلمية ، إلا أن أثره في الأدب العربى الحديث أجل من أن يهمل .

دخل جمال الدين مصر في سنة ١٨٧١ ومكث بها ثماني سنوات كانت من خير السنين بركة على مصر وعلى الشرق العربى والإسلامى ، وأخذ عقله المنظم الجبار يشع النور فى كل مكان يحل فيه صاحبه ، فدروس منظمة يلقيها فى بيته على صفوة مختارة من حواريه أمثال محمد عبده ، وعبد الكريم سلمان ، وإبراهيم اللقانى ، وسعد زغلول ، وإبراهيم الهلباوى ، وكانت هذه الدروس فى المنطق والفلسفة والتصوف ؛ إلى مجلس آخر بأحد المقاهى مساء كل يوم حيث يلتف حوله أنماط شتى من الراغبين فى التزود من علمه وفكره ، يجلسون إليه ويطرحون عليه أسئلة فى مختلف الموضوعات ، وهو يجيب إجابة العالم المحقق « لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل ، أو يطهر العقيدة ، أو يذهب بالنفس إلى معالى الأمور أو يستلقت الفكر إلى النظر فى الشؤون العامة مما يمس

(١) لافونتين شاعر فرنسى مشهور ولد فى سنة ١٦٢١ ، وتوفى بباريس سنة ١٦٩٥ ، ولا يزال كتابه « الأمثال » حتى اليوم ذا منزلة عظيمة فى عالم الأدب ، وقد نظم فيه كثيراً من القصص الرمزية ، وقصصاً على ألسنة الحيوان من أمثال تلك التى فى كليلية ودمنة .

(٢) إذا أردت المزيد عن نشاط الترجمة فى ذلك العصر فارجع إلى كتابنا « فى الأدب الحديث » ولكتاب « حركة الترجمة فى مصر » لملك تاجر .

مصلحة البلاد وسكانها ، فاستيقظت مشاعر ، وتنبهت عقول ، ونحف حجاب الغفلة في أطراف متعددة من البلاد خصوصاً في القاهرة ^(١) .

وفي هذه الحلقة أنشئت مدرسة غير مقيدة بمنهج أو كتاب ، ولكنها كانت روحاً مشعة تبدد دياجير الغفلة ، وتحيي العزائم الميتة ، وتلهب الإرادات الخاملة ، وتفتح الأذهان المغلقة ، وفيها تخرج البارودي ، والمويلحي ، ومحمد عبده ، ولإبراهيم اللقاني ، وسعد زغلول ، وعلى مظهر ، وأديب إسحاق وغيرهم . وفي هذه المدرسة العامة استعرضت أحوال الأمة الاجتماعية والسياسية ، وحقوقها وواجباتها ، وأدائها ودواؤها ، وانتقد الحكام ، وبثت تعاليم الوطنية ، وفشت روح التذمر من الأجانب وتدخلهم في شؤون البلاد مما كان له أبلغ الأثر فيما بعد .

وبحسب جمال الدين أثرأ في الأدب أنه وجهه إلى الاهتمام بالشعوب ومشكلاتها ، بعد أن كان كله يدور حول الأمير وحاشيته ، فصرنا نسمع الكتاب والشعراء يدافعون عن الشعوب المظلومة التي تثن تحت نير العبودية والعسف . لا تعرف كيف تراجع الحاكم في حكم أبرمه ولو كان ظالماً ، ولا كيف تثور وتئن وتتوجع وتسمع شكاتها للعالم ، والحاكم سادر في غلوائه ^(٢) . يمتص دماءها ، ويسخرها لأهوائه وشهوته ، ولا يفكر في نفعها إلا بمقدار ما يعود عليه هو من الفائدة . ولقد كانت مصر تثن وتتوجع في هذا العصر من الضرائب القاسية ، والاستبداد والظلم والسخره والجلد ، والفقر والجهل وصرنا نسمع الكتاب والشعراء في ذلك العصر يدعون إلى الأخذ بنظام الشورى في الحكم ، حتى تشعر الأمة أن مقدراتها بيدها ، وحتى تأمن جانب الحكام وعيهم بكنوزها وأرزاقها ، بل مقامرتهم على استقلالها وحريتها .

٣ - الحياة الاجتماعية

كانت مصر في عهد محمد علي أشبه بمزرعة كبيرة خاصة به وبحاشيته ، يديرها مشرفون من قبله يسمون « الملتزمين » ، يجبون له من خيرات البلاد

(١) من ترجمة السيد جمال الدين الأفغاني بقلم الشيخ محمد عبده .

(٢) سدر في غلوائه : أمعن في الغلو غير مبال بما يصنع .

ما يفرضه عليهم ، فيرهقون الفلاحين بالطلب ، ويأخذونهم بالعنف والقسوة حتى يحصوا منهم ما التزموا به ، ويوفروا لأنفسهم ما يهين لهم العيش الرغد . وكان هم محمد على منصرفاً إلى الجيش ليوطد به أركان ملكه ويوسع رقعته ، وفي سبيل الجيش ونهضته أسست مدرسة الطب ، والهندسة والصيدلة وغيرها من المدارس العليا ، والمدارس الثانوية والابتدائية التي توصل إليها ، ولهذا لم يكن لعامة الشعب نصيب كبير من هذه النهضة ، بل لم يلتفت محمد على إلى إصلاح حال الشعب ولا أهتم بمعالجة فقره ، ومرضه ، ورفع مستوى معيشته ، ومطاردة الأوهام والخرافات المسيطرة على عقليته .

ثم كان عهد عباس الأول وسعيد أسوأ من عهد محمد على ، فقد أصيبت مصر في عهدهما بنكسة في التعليم والجيش ؛ ثم جاء إسماعيل وسار على سنة جده واهتم بمظاهر المدنية الأوروبية اهتماماً عظيماً ، وأسرف وبذر في أموال مصر ، وأرهب الناس بالضرائب حتى وصلوا إلى الدرك الأسفل من الفاقة فهجروا الأرض ، وفروا بأبدانهم من سياط الحياة .

استمع إلى الشيخ محمد عبده يصف ما كانت عليه حال عامة المصريين في ذلك العهد : « كان أهالي بلادنا محملين من الأثقال النقدية ما لا يطيقون من ضرائب على الأراضي متنوعة متكررة ، تتجدد على الدوام بتجدد الأشهر والأعوام ، وغرائم تفرض على الأنفس وتوابعها من غير نظام ، لا تنتهى عند غاية ، ولا تقف عند حد ، حتى بلغت نهاية لا يستطيعون معها الأداء لشيء مما فرض عليهم ، ثم لم يكن لاقتضاء هذه الفرائض الثقيلة منهم ، وقت معين ، ولا قاعدة معروفة ، بل كان ذلك على حسب اشتهاؤ الحاكم وإرادته غير المرتبة ، فتارة يجبرون على أداء جميع أموال السنة بأنواعها في أول شهر منها ، وتارة يطالبون بأموال السنة القابلة في منتصف السنة الحاضرة ، ولا محيص لهم عن الأداء ، فإن من تأخر عنه عومل بالضرب المهلك ، والحبس المؤبد ، أو انتزع منه جميع ما بيده قهراً ، وما شاكل ذلك من المعاملات الخشنة » (١) .

(١) « تاريخ الشيخ محمد عبده » ج ٢ ص ٧٤ ، وص ١٧٠ ، و « الوقائع المصرية »

فكان الفلاح من جراء هذه القسوة والجبروت بين عاملين أحلاهما مرًا : إما أن يلجأ إلى من يقرضه بالربا الفاحش ، إذا آثر الاحتفاظ بأرضه ، وسرعان ما ينوء كاهله عن سداد ما عليه من ديون فتتزع منه أرضه ، وإما أن يتركها وينجو ببذنه . وشعب هذه حال جمهرة بنيه لا ينتظر منه أن يعنى بشئونه الاجتماعية : من خلقية ، واقتصادية ، وصحية ، بل تراه نهياً للجهل والخرافات والمرض والانحلال .

وبينما كان الفلاحون يعانون في سبيل العيش ، والاحتفاظ بأرضهم ما يعانون من ضرائب ، وسخرة ، وجلد ، وظلم دائم ، كانت الطبقة الحاكمة من أبناء الشراكية والأثراك تتمتع بكل خيرات البلاد ، وتستنزف دماء هؤلاء الفلاحين ، وتبذر الأموال في سفه وطيث .

ولقد من لورد كرومر على مصر حين ألغى كل هذه المظالم ، وقد صور في كتابه « مصر الحديثة » كيف أن عهده كان نعمة على الفلاح إذا قيس بعهد إسماعيل فقال : « لقد صرت روح جديدة بالترديد إلى سكان مصر ، وتعلم الفلاح كيف يعنى النظر في حقوقه ، وتعلم الباشا أن لمن يجاوره من الفلاحين حقوقاً يجب احترامها ، وعلى الرغم من أن السوط كان لا يزال معلقاً على جدار المديرية ، فإن المدير لم يجروء على رفعه واستعماله فوق ظهر الفلاح . وقد اختفت السخرة البغيضة من مصر ، وذهب الرق عملياً من الوجود ، وانقضى أجل الأيام السعيدة التي كان يتمتع فيها المرابون باستنزاف دماء المصريين ، وأصبح للقانون الكلمة العليا في كل مكان ، بعد أن كان القضاء يباع ويشترى ، وابتدأ المصريون يحبون أرضهم ، ويعملون بها بعد أن كانوا يحتقرونها ، لتمنحهم هباتها وخيراتها فاستجابت لدعوتهم كريمة معطاء . وقد أحكم توزيع مياه النيل بالعدل والقسطاس المستقيم بين أرض الأمير الكبير والفلاح الصغير ، ونظمت وسائل النقل واتسع نطاقها ، وأصبح المرضى يعالجون في مستشفيات جيدة الإدارة » (١) .

أجل ؛ لقد أراد المحتل الأجنبي أن يتوحد إلى شعب مصر ويظهر بأنه أرفأ به وأرحم من ولاته المستبددين القساة فرفع عن كاهله كل هذه المظالم ، وإن

أساء إليه بعد ذلك إساءات لا تغتفر^(١) .

ولقد كرم إسماعيل الأفواه ، وغل الأقلام ، وضرب على الصحافة قانوناً صارماً ، وصادر الحريات العامة والخاصة ، وكان حكمه استبدادياً قاسياً ، يفصل في الأمور كلها برأيه ، ولا معقب لحكمه « ومع أن إسماعيل أبدع مجلس الشورى في مصر سنة ١٢٨٣ هـ ، وكان من حقه أن يعلم الأهالي أن لهم شأناً في مصالح بلادهم ، وأن لهم رأياً يرجع إليه فيها ، لم يحس أحد منهم ، ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن لهم ذلك الحق الذي يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية ، لأن مبدع المجلس قيده في النظام وفي العمل ، وأوحدت إنساناً فكره السليم بأن هناك وجهة خير غير التي يوجهه إليها الحاكم لما أمكنه ذلك ، فإن بجانب كل لفظ نفيّاً عن الوطن ، أو إزهاقاً للروح ، أو تجريداً من المال^(٢) .

ولا ريب أن الكبت والتضييق على الحريات أوغر الصدور ضد إسماعيل فتألفت بعض الجمعيات السرية لتحطيم تلك الأغلال كجمعية « مصر الفتاة » وكان من أهم أغراضها محاربة إسراف إسماعيل وتمهوره ، وتدخل الأجنبي في شؤون البلاد وتجبره ، وكان من أهم أعضائها وأبرزهم عبد الله نديم ، وقد حول هذه الجمعية السرية إلى جمعية علنية تعمل في ضوء النهار وسماها « الجمعية الخيرية الإسلامية » وذلك في سنة ١٨٨٠ . وقد جعلت نصب عينها الاهتمام بالتعليم الوطني ، وتنظيم الإحسان ، والنورة الشديدة على نفوذ الأجانب الذي استشرى في البلاد . كما أن مصادرة الحريات والقسوة العارمة من الحكام أوجدت طبقة من المنافيين والنفيعين الذين برم بهم الوطنيون المخلصون ودعاة الإصلاح ، وقد شن عليهم البارودي حملة شعواء في شعره ، لأنه لقي من كذبهم ونفاقهم وخداعهم مصائب جمة .

لقد كان المجتمع المصري في ذلك العصر - عصر إسماعيل وأوائل عهد توفيق ، يتكوّن من أبناء الطبقة الحاكمة ومعظمهم من الشركسة والأتراك ، وهم أصحاب النفوذ ، وكبار الموظفين ، ولقد ظلت اللغة التركية هي لغة الدواوين

(١) راجع الفصل الأول من كتابنا « في الأدب الحديث » الجزء الثاني .

(٢) محمد عبده في العروة الوثقى .

معظم عهد إسماعيل حتى ترجم عبد الله فكرى اللوائح إلى العربية^(١) ، فلا بدع إذا أثرت الحكومة أبناء الأتراك ومن يجيد التركية بالوظائف الكبيرة . وكان لا هم لأبناء الخاصة هؤلاء إلا العبث واللهو والإسراف في الزينة والمأكل والملبس ، وتقليد الحياة الأوربية تقليداً أعمى ، ولقد وصفهم محمد عبده فأبدع في وصفهم ، ونصحهم في أكثر من مقال فلم ينتصحو^(٢) . ووصفهم البكرى في صهاريج اللؤلؤ وصفاً شائفاً . على أن قليلاً منهم عنى بحياة الخلد ، وتشجيع الأدب والأدباء ، فكانت لهم في منازلهم مجالس يغشاها الكتاب والشعراء ، وكانوا يعتبرونهم ندماء لهم ، ولذلك شاع أدب الندماء في هذا العصر ، وقد وصف عبد الله نديم بعض هذه المجالس ومن يغشاها وصفاً^(٣) بارعاً كما حدثنا المرحوم أحمد تيمور عن بعض هذه المجالس^(٤) .

أما سواد الشعب وهم أبناء العامة ، فالتعلمون منهم ، سواء هؤلاء الذين تعلموا في الأزهر أو في مدارس الحكومة ، يمثلون العنصر الصالح في الأمة ، وكانت تغلب عليهم المحافظة على التقاليد ، والامتثال لأوامر الدين ، وقد كانوا فيما بعد عماد الحركات القومية ، وعدة مصر في جهادها ؛ أما غير المتعلمين وهم الغالبية العظمى في الريف وفي المدن ، فكانت تسود بينهم الخرافات ، وإن كانوا على شيء من الطيبة والتحفظ ، إلا أن الجهل كان يفعل بعقولهم الأفاعيل ، ترى ذلك في الحفلات الدينية ولا سيما في الموالد .

وكان كثير منهم يدمن على المخدرات ولا سيما الحشيش والأفيون في جلسات خاصة أو عامة^(٥) ، وكانوا يتقصون أوقات فراغهم أحياناً في المقاهي يلتفون حول قاص من القصاص يحكى لهم سيرة عنتره أو أبي زيد الهلالي ، ويزيد عليها من عنده . وقد أوقعهم الجهل فريسة للمرابين والمحتالين من الأجانب^(٦) .

(١) راجع « في الأدب الحديث » الجزء الأول ص ١٢٦

(٢) راجع « الوقائع المصرية » عدد ٩ فبراير سنة ١٨٨١ ، و « العروة الوثقى » العدد الثالث .

(٣) راجع « سلافة النديم » ج ١ ص ٢٤

(٤) تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الهجرى .

(٥) العدد الأول من « التنكيك والتبكيك » لعبه الله نديم .

(٦) المصدر السابق .